# في ربيع اليأس

## مقال نموذجي للريحاني

اليأس مثل كل حس بشري ، يتنوع في الناس ويتفاوت . فقد ييأس الفلاح مثلا من جفاف زرعه ، او من وباء يذهب بمواشيه . وقد ييأس العالم من نظرية يعالجها لاستئصال ذلك الوباء ، او الة يخترعها للسيطرة على الجو والمطر . وكذلك يختلف يأس الشاعر عن يأس البقال، ويأس الانبياء عن يأس المجرمين .

اعود بك الى امثلة من اليأس الاعلى الذي لا يزال نوره يشع في العالم ، الى المسيح في « الجثمانية » ، الى النبي في الكهف ، الى الرسول بولس في مركب تتقاذفه الامواج ، الى سقراط في السجن ، الى ابي العلاء في محبسيه ، الى دانته في منفاه ، فهل كان يأس هؤلاء مثل يأس جيرانهم الفلاحين والنوتيين والعشارين ، او مثل يأس زملائهم الادباء والشعراء ؟

وهل الانسان الذي ينتهي يأسه بقصيدة ينظمها ، او تتقيد اشواقه بتقريظ في جريدة ، او بعشاء على مائدة امير ، او بظفر غرامي في حفلة راقصة ، هل هذا الانسان في يأسه مثل من له سلم لولبي من الاشواق والامال ؟

قد يكون الجوهر واحداً . ولكن الشكل ، واللون ، والبيئة ، وما يتصل بالبيئة من سابق ولاحق في الحياة، تختلف كلها اختلاف الاشواق والامال في الناس ، واختلاف الثروة الروحية في الافذاذ من الناس .

كان ليأسي شتاء ، وكنت فيه الاديب المجاهد في سبيل ـ المجد !

وكنت بين كتبي واوراقي وصوري وتحفي الفنية كالقائد لجيش عاص متمرد . وما الفائدة من السلاح والذخيرة ، من القلم والافكار والعلوم كلها ؟

ماذا يفيدك الفلك وانت لا تدري في اي برج تصل النجدة ؟ او معرفة البلدان وانت عاجز عن السفر الى حيث تخف تكاليف الحياة وتنعم جنباتها ؟ او الفلسفة وانت في لجج الاحزان من اضعف الناس ؟ او الطب وشرايين قلبك تزداد تصلبا يوما فيوما والمكروب يفتك برئتيك؟ او الفيزيولوجيا وانت لا تستطيع ان تصلح قلبك المكسور او قلب المحبوب القاسي ؟ او الفنون الجميلة والعالم كله في نظرك مثل لوحة مبتدىء في الفن ؟

كان ليأسي شتاء ، وكنت فيه الاديب العالم المجاهد في سبيل ـ المجد ! ولكن ذلك اليأس فتح امامي باباً من ابواب الحياة .

خرجت ذات يوم من بيتي ، من غرفتي التي كفنت فيها اعز ما لدي . خرجت من الغرفة ليلا لاني لم اطق ان ارى ما كنت اتخيله امامي: تابوت احلامي ! فررت منه في ليلة عاصفة . وكان الثلج يتساقط علي ، ويتراكم تحت قدمي ، ويتجمد الما بين جنبي . وكنت ، لستاره الكثيف وللرياح التي احنت رقبتي ، لا ارى غير موطىء قدمي . فاصطدمت في تلك الساعة وشخصاً اخر حاله في العاصفة مثل حالي ، فاعتذرت . واعتذر الاخر وكان صوتا ناعما رقيقا : « لا تؤاخذني » . هو صوت فتاة بائسة شريدة .. جمع الثلج والليل بيننا ، وربطت العاصفة قلبينا ...

سرت بها الى بيتي ، الى غرفتي التي تركت فيها تابوت احلامي. واجلستها بين كتبي وادواتي وصوري الفنية والتذكارية . فقالت : ليتها تؤكل ! اخرجت كل ما في الخزانة الصغيرة ، فاكلت وهي لا تزال ترتعد من البرد . شببت النار، ولم يكن عندي ما يكفي من الفحم ، فاشعلت سفرا من الاسفار .

لقد انساني لهيب تلك الصفحات احلامي . وانستني البائسة الشريدة الضالة المنشودة . لله من الحياة ! ابمثل هذا البؤس وهذه الالام ننشد الشهرة والمجد ، ونود ان نحرق المدينة ، ونعزف بالناي مثل نيرون فوق طلولها ، لانها لا تواليننا ولا تفتح لنا ابواب قصورها ؟

كنت والبائسة تلك الليلة كادم وحوام ، ادم وحواء لا في الفردوس، بل في الجحيم . في تلك الليلة تحول يأسي ، وتضاعفت احزاني . لم افكر بعد ذلك بضالتي المنشودة ، وامحى من مخيلتي رسم تابوتها. بيد اني انتقلت الى الحياة الكبرى التي تتبارى فيها المحاسن والمآثم ، واللذات والالام . لله من نير الحياة الكبرى الذي يقرن العقم بالفضيلة والبؤس بالجمال .

تحول يأسي كما تتحول الدودة فتصير فراشة . فوددت لو كان في امكاني ان اخرج حواء وادمها ـ كل امراة وكل رجل ـ من جحيم هذا الزمان ، واعود بهما الى الفردوس الاول . هيهات ! هيهات ! وكان هذا اليأس في قلبي احر من نار الجحيم ، وآلم من كل ما قاسيته من الالام . فلا عجب اذا فررت منه . فررت من ادم وحواء في الجحيم . هربت من المدنية ومن جحيمها .

***

هربت الى البادية ، فنسيت ادم ، ونسيت حواء، ونسيت الجحيم. وكانت سنة من السياحة فيها البهجة والحبور قدر ما فيها من الحرمان والمشقات !

ليس من شأني التلاعب بالافكار والالفاظ . وانه ليؤلمني ان اترك القارىء مخدوعا بكلمة من كلماتي ، او ان احمله على التاويل ، كما يؤلمني ان اخادع النفس ولا اطيق ذلك .

كنت قبل الفرار الى البادية في شتاء اليأس، بل في باب الربيع منه . ولكني لضعف روحي او نفسي او جسماني ـ وقد يكون الضعف في الثلاثة ـ لم اثبت في الجهاد . فتقهقرت ، وعدت ادراجي الى الشرق، الى البادية العربية ، فكنت فيها مغتبطا على ما قاسيت ، محبورا على ما حرمت .

وكيف ذلك ؟ رايتني في البادية امشي في ظل الشهرة التي طاردتها في المدينة ، ورايتني محفوفا بالتجلة والاكرام ، ورايتني مستمتعا بما كنت اتوق اليه ، بالمجد قبل ان استقر في تابوته ، وقبل اجتماعي بحواء في الجحيم .

هل عدت بفراري الى البادية ، الى الوراء ، اذا ما نظرنا في الامر نظرة سطحية اجيب : نعم . قد عدت الى الوراء سنة واحدة . انما كان من العلم ، ومن الخدمة القومي ، ومن معرفة الله في تلكم الدهناء وتلكم النفود ، مايبرر سنة بل سنوات تتخلل الياسين ، يأس الشتاء ، ويأس الربيع .

***

ايها القارىء العزيز، ما انا برسول الحقيقة والخير اليك اذا كنت لا اتحرى الصراحة والصدق في كل ما اقول . لذلك تراني افتح كتاب النفس لاطلعك على صفحة من صفحاته الشخصية الخصوصية .

سنة في البادية انتهت بعزلة في الجبل ، ولكنها عزلة جسمانية فقط . فهناك الكتب والاوراق والالوان الفنية تشاركني هذه العزلة .

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٧٤ ـ

# في ربيع اليأس

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١١ ـ

وهاك الجرائد والمجلات تحمل الي اخبار العالم والحياة .

العالم الذي فررت منه والحياة التي نبذتها ! ترى الاول يجالسني كلما جلست استريح ، فيحدثني وهو يبسم بسمة ابليس . والثانية تجيئني سامرة ، فتثرثر وتقهقه .

العالم يقطع علي العزلة ليقول : وما الحق بغير القوة ! وما الرجال بغير المال ! وما الانتداب غير نوع جديد من الاستعمار . خلق الضعيف لخدمة القوي . والضعيف من الشعوب والامم ، مثل الضعيف في الناس ، قسطه النير ....

وهاكم قويا في العالم الجديد يسيطر على اقوياء العالم القديم. يسيطر بالمال ، بالذهب . وهاكم في الشرق الاقصى دولة تقلد دول الغرب بما يود المصلحون تطهير الغرب منه ، بالقوة المادية والشره الاستعماري . وهاكم الصين تئن بين براثن الحرب الاهلية التي تغذيها سرا دول الغرب . وهاكم الهند وفيها الاسد والفيل يتنازعان الملك ويتصارعان . والى الشمال دولة تشرئب بعنقها الى الغرب وتود ان يكون لها في الهند ما لليابان في الصين .

وهاكم في الشرق الادنى طرفي الحقيقة : « ان الحق للقوة » . ففي انقرة نخط الحقيقة باحرفها الكاملة ونلفظها : جمهورية كمالية . وفي طهران نخطها بماء الذهب بالحرف الفارسي ونلفظها : مملكة رضوية . وفي نجد والحجاز نخطها على الرمال بالاحدب البتار فتسفيها الرياح وهي تردد اسم ابن سعود . وفي الشرق العربي (١) لا نكاد نخطها حتى يمحوها ببنصره الخنوع ويكتب مكانها : عاشت بريطانيا العظمى ! وهذه بريطانيا العظمى بعد ان استعادت شيئا من الصولة التي فقدتها في الحرب الكونية ، تقلد الطائع في الشرق العربي وسامه وتهدد بالمدرعات والطائرات ، السيادة الوطنية والحرية القومية في فلسطين .

في هذه البلاد السورية كتبت الحقيقة بعشر لغات ـ لغات الطوائف ـ فكان للدولة المنتدبة فيها عشر قراءات مختلفات ، وكلها تعود الى مصدر واحد : الحق للقوة .

بذا يحدثني العالم وهو يبسم بسمته الخبيثة المؤلمة

والحياة تقطع علي عزلتي فتجيء سامرة وتقول : انما الحق لمن يحسن الرياء ، والقوة لمن يبرع في المداجاة . الحق والقوة والوجاهة والثروة كلها للامعيين ، لاولئك الذين يقفون مطاطئي الرؤوس امام كل كبير من السادة الزعماء ، وامام كل من وقف حولهم في ظلال السلطات الثلاث ، المدنية والدينية والمالية .

الحق والقوة والوجاهة والثروة لمن يقول : نعم ، نعم ، على الدوام . ذلك ان القوة الايجابية في الحياة هي القوة الغالبة . ولا يقول: لا ، لا ، غير المصابين بعسر الهضم والمجانين ، والانبياء . اتبغي المال والرفاهية والجاه ؟ نعم ، نعم . اتبغي السيادة والقوة والمجد ؟ نعم، نعم . سيادة تتصدر فيها ؟ نعم . هم . عصا من الذهب وثوبا من الارجوان ؟ نعم ، نعم . عضوية في المجمع العلمي ، او رئاسة في البلدية، او في الرابطة الادبية ؟ نعم، سيدي ، نعم ... وفساطين يا سيدتي من باريس ؟ نعم ، نعم . واميرا صاحب كيس ؟ كيف لا ! . والحب لابليس؟ نعم ، لابليس ... هي ذي الحياة ، حياة كل يوم ، تجيئني في الجرائد مثرثرة مقهقهة ، ثم تتوارى وهي ترقص الرقصة الجديدة .

(١) اسم قديم للمملكة الاردنية .

فاخرج انا من المنزل لاستنشق الهواء النقي ولاحدث النجوم، وكاني بها ، وهي تدور في افلاكها ، تذكر بمن وقف تحتها في غابر الازمان من الانبياء والعلماء ، وتقول : نعم ، نعم ، لكل ما قالوه .

وهل من حاجة الى ان اردد على مسمع القارىء ما قاله الانبياء ؟ فقد بدأ احدهم وصاياه بـ « لا ، لا » . ووقف احدهم امام عروش الظلم وقال : « لا ! » لاربابها . ومشى اخر مع الفقراء وذوي القلب الوديع فقال لهم مرارا : « انا هو خبز الحياة . ومن اضاع حياته من اجلي يجدها ! » واوصى رابع بالامر بالمعروف وبالنهي عن المنكر . وقالوا كلهم بالحب والسلام والاخاء الانساني . وكلهم يئسوا من الانسان .

ووقف الانبياء في ربيع اليأس فصرخوا من اعماق قلوبهم قائلين : سمع الانسان كلمة الله وظل عتيا . وآمن وظل ضالا . ومشى الانسان على الاثنتين وهو لا يزال في كثير من صفاته مثل ذوي الاربع . علمناه التوحيد وهو لا يزال يقول : عيسى ومحمد وبوذا وزردشت . علمناه المحبة وهو لا يزال يصنع المدافع والقنابل والبارود . علمناه الرحمة والعدل وهو لا يزال ، في سبيل شهواته ، يطأ برجله القلوب الدامية.

نفض الانبياء ايديهم من الانسان . ولكن صرخات يأسهم، سمعتها القرون ، ورددتها الاجيال . رددها في كل جيل افراد من اولئك الذين يعطون حياتهم ليظفروا بها ، وادى ترادهم الى تجديد الصلاح في الناس وزيادة عدد من يقولون « لا ! » ومن هم في قلوبهم ، وفي اعمالهم مؤمنون ايمانا صادقا . لذلك ترى الواحة في بيداء الحياة تتسع وتزداد اخضرارا كل مئة من السنين .

***

كذلك يزهر يأس الانبياء ويثمر .

وانا المقيم في هذا الوادي ، في هذا الزمان ، زهرة من يأس الانبياء . زهرة نورت ، فذوت ، فتناثرت اوراقها ، ثم انتثرت من قلبها بذور الحياة ، فحملتها الرياح في النواحي الاربع من الارض .

زهرة من يأس الانبياء تغدو بستانا ، ويضحي البستان ربيعا ، ويكون للربيع صوت ، هو الذي تسمع الان ! هو صوت صاعد من ربيع اليأس !

لله من ظلم ينبعث في حكومات العالم الحرة ! لله من تعصب يتجدد في اديان الامم المتمدنة ! لله من شعوب تنفر الى الماضي لتمتص من عظام الاموات شيئا من الحياة ! لله من حياة تزداد اعباء كلما ازداد الانسان علما ونورا ! لله من شعوب في هذا الشرق تردد كلمات التوحيد وهي عامهة في الشرك .

في السماء رب واحد وان تعددت اسماؤه ، وعلى الارض ناموسه، مظاهر تتجسم ، كل جيل ، في افراد من الناس ، فينيرون جادة من جادات الروح ، ويفتحون للشعوب بابا من ابواب الخلاص (الرقي) .

هم ازهار ذاك الربيع ، ربيع يأس الانبياء . لهم يومهم ، ولهم عملهم ، ولهم يأسهم المزهر المنير . ولولا ذلك ليئسوا حتى من الله

***

ان ياسي لغني ربيعه وفي هذا الربيع لكل امة من الامم ، ولكل شعب من الشعوب ، زهرة طيبة الاريج .

ولكني وان قالت امي : العذراء ، اقول : الله .

وان قال اخواني المسيحيون : المسيح ، اقول : الله .

وان قال اخواني في الشرق : بوذا ، اقول: الله .

وان قال اخواني العرب : محمد ، اقول : الله .

وان قال اخي الفارسي : آهورا ، اقول : الله .

وان قال اخي الصيني : كنفوشيوس ، اقول : الله .

وان صوتي ، وان كان من اصوات اليأس ، لمن اصوات الله .

ولولا هذه الاصوات ، المرسلة من اليأس اشعة وحياة لتجديد الامل والجهاد ، لما مشت الاجيال الى المحجة العليا .

**امين الريحاني**